

المقامة الخامسة تسمى الزهوانية

تضمن سفر الشيخ ابن عيسى لبلاد وهران واطلاقه مع الهوى
و مدح المحاسن بالاشعار

حدثنا محمد بن العربي قال كنت في سنة سالحة، التقيت بصابة فالحة، فلما اتممت
حصادها، وخزنت منالها، وادخرت ما يكفي في غنايمها، و حمدت الله على اتمام نعيمها،
حدث لي بان ابيع الفرينة، في بلاد الرينة، فكرزت عدة من الغراير، ورفدت بالحمول على
البعائر، وتجهّزت للسفر وسقت إبلي، واستصحبت مع رفقة من أهلي، لهم في المعاشرة
والمواقفة انتجاب وافتخار، و في الشجاعة وشدة البأس يماثلون العيهار، و في الحيا
والجود كأنهم من الاخيار، فسرنا في فاكه واقتران، قاصدين مدينة وهران، الى ان وصلنا
البلاد، ودخلناها بدلايل و أرشاد، فلما انتهيت المقصود، وقبضت المعدود، سرّحت رفقتي
و اودعتهم للرجوع، بعد ما قمت لهم مؤنة النفوع، وانقلبت للمدينة المعلومة، ناويا لاقامة
قرية ممنونة، فبينما أجول بين زنق ادروبيها، وانفيا ظلها وخلالها وانعومها، فوجدتها ذات
أسواق عجبية عامرة، ومخازن كثيرة السلع والبضع مصلوبة نافذة، و رأيت فيها ما لا
يحصى من الاخلاط، وقد اجتمعت فيها من جميع الارهاط، حتى استوجب مدحها بهذه
البيت :

فوهران البهجا ارتقت و صارت * على المحاسن احتوت و فاقت

إذ بي انتظمت مع رفقة رايمين النشاط، ورايدين الانفلاط، فعجبنا لهذا الغيوان، الى قرية
الهايج بباب تلمسان، فوجدناها ماسية الصفوف، ضاربة الكفوف، فصرنا سائل و مسول،
الى ان وصلنا جبل الغول، فدخلنا في سماط قويم، ذي حرج عميم، و موايد من الرخام
صميم، ومدام كأنه سيل العرم، فلما خرجنا من مكنونه، وخلصنا مثنونه، ضربنا ريح
الرجوع، وما فينا من يتذكر الخشوع، فطلبنا مركب النفوسه، و ركبناها بالقטיפه، ثم اننا

تشاورنا و تأملنا التدبير، بأن ننزل باستدارة الامير، فلما وصلناه، وحلنا ساحتاه، وجدناه ذا نخل نضيد وشجر، وامياه زلال²⁵ تنهمر²⁶، ثم خططنا الاقدام، بلطافة من الاهوام، لنحية استدارة الجماعة من فايح²⁷، و ارتقنا على البحر الهايج، فاشتاقت قلوبنا للتحواس بساحله، وشرب المدام بجانبه، فاخذنا مركبا و جزنا على السقالين، قاصدين حمام السلاطين، فلما انتهينا الى قصوره، واخذنا بيتا من بيوته، درنا على الجماعة بابساط الكلام، واستحضر جملة من انواع المدام، اذ سمعنا صوت غريب النهيق، في موضع مستوحشة العمارة بالرقيق، والامواج هايجة لها زفير وشهيق، قال ابن العربي فقلت لاصحابي ألا تسامحوني لانظر من هو الناطق، في هذا المحل الشايق، فقالوا لي افعل ما بدا لك، فلا تجد فينا من يشهد ملامك، فانطلقت هابطا مع مريرة رقيقة الجر، الى اسفل ساحل البحر، فبينما احاي المخائل بين الاصخار، وانختل بين كراكر²⁸ من الاحجار، فما كذبت اذ رايت علامتنا ابن عيسى العوالي بين جزيرتان، و حوله قراب عليه حوتتان، و بيده قسبة طويلة وسنارتان²⁹، وهو يقتنص صيد الحيتان، ويتزئم استنباط الشعر بالميزان، فبادرت لانتقايه، مبادرة الغريق لنجاته، فسلمت عليه و عانقته معانقة اللام للالف، وحييته محية السالف و الخالف، و قلت له ما شانك بهذا المكان، وما هو حالك في صرف الزمان، فقال اني اتيت لازور مقام أيوب، واغتسل فيه من الذنوب، واحذرا لما يتوقع من العيوب، فقلت له خوَص الله قرنك³⁰، و صحّ سنّك و نياباك، و يطول حبلك³¹، ألك في الصعود عندنا، لنتظر الجماعة وتجلس معنا، فتبسّم و قال نعم، ألم اعص امرك او الم

²⁵ زلال يعني صافي و الانقي او طاهر.

²⁶ تنهمر يعني تجري و الاتسيح.

²⁷ الفايح يعني الجهة.

²⁸ الكراكر جمع كركار و هي العرمة من الحجر المجتمعة.

²⁹ سنارتان تثنية سنارة يصنعوها من الهند كالابرة المعكفة يقتنصوا بها صيد الحوت.

³⁰ خوَص الله قرنك يعني طول عمرك على خاطر الفرد و هو ذكر البقر كطالت حياته تخوّصت قرناه على راسه و

مئل الشيخ ابن عيسى كالعجمي.

³¹ و طول حبلك و مصرانك: الحبل هنا مراده حبل كرشه كما قال في مدح الفسيو حيث قال سبعة ابغال رافدة رشات

اقفاه و سبعة ابغال رافدة حبل كرشه، و ابن العربي دعى لابن عيسى ان يبلغ حبل كرشه و مصرانه كالفسيو و هو

اصغر الطيور و احقرهم ببلادنا.

اهم، ثم انه تعضد عصاه، وعلق قرابة على يميناه، وقال لي اسرع بالصعود، و سيكون الهنا والسعود، فلما اهوينا الاعلي، ودخلنا بيت الانهالي، قلت للجماعة هذا شيخنا ابن عيسى العوالي، فقاموا اجلالا له، و بالمبادرة عينوا اجلاسه، فلما استوى على كرسيه، و جعل الطابلة بين يديه، قال الحمد لله الذي جعل الملاقة بسبب الانطاق، وجمع اللمة في شرايف الاطباق³²، فحينئذ عرض عليه أحد الاول من الجماعة وقال له ألك في شرب الاماط، قال لا ولا احضر محضر العياط، ثم لامحه الثاني و قال له ألك في شرب الشاتروز، قال لا و من أي طريق اليه أجوز، ثم غامز الثالث و قال له ألك في شرب الفين، قال لا ولا بصحبة ألفين، فعند ذلك أخذت بالكاس، و أشرت اليه بالخمس، و قلت له ألا تفاجي الهمة، و تشرب قدحا من الخضرة، قال نعم و بنت مريم، حلوتها بير زمزم، فاملت الكاس وناولته اليه، فقبضه من يدي وانشد عليه:

شوف لصهيبية في الكاس * صافية الزلال تحاكيه
من يدوقها يرجع وسواس * قاطعة بالسّم ابوكيه
خلطها بالبلاز اجناس زيّ واحد مشبوكة فيه

فلما تجرّع الكاس الاول والثاني، تغرغرت عيناه بالتداني، ثم لفت وجهه في البيت، وقال اه اه³³ البيت و البيت³⁴، ثم تأسف و عبس، و دواخل قلبه مؤيس و انبسط و تنفّس، و انشد على خليلته المنعس:

³² الاطباق جمع طبقة و هي طبقة القصر كما ذكر في كتاب رسالة الابرار ما وقع لهما بالاسحار عند قوله : جعلت فيه ثقبه كالطاق * كثقبه الخيان في الاطباق

³³ آه آه كلمة مكررة و هي تأسف و توضع.

³⁴ البيت البيت هي كلمة مكررة للتمني و للترجي و المراد هنا للتمني المنقطع و لا بقی له الترجي بدليل قوله و داخل قلبه مؤيسة و الايس هو قطع الترجي و بقی الطمع فيما كان يريد في الماضي.

عشيق بات بهذه المقامي * بمحوبة مفرطة الاشفاق
بتطريب و الطيب الدامي * و لم يقض وطرا منها بساق
فيا حسرة لَمَّا افترقا صباحا * فوالله ان في الفراقي المشاق
فيا معشر الاحباب بالله جودوا * و ادعوا للمعشوق يهون العشاق

فلَمَّا تمَّ أبياته وبيّن وصفه انعمته، تنهّد كما ينتهّد الهكول³⁵، وتلوّن كما يتلوّن الغول، وهو ينظر الينا وبتأمّل في القول، فقلنا له اكشف لنا السراير، واوضح لنا ابراز الضماير، فما فينا من يحلّ عقده، ولا من يفهم نكته، قال لنا امهلوا بالسؤال، فعند المثل يصح المقال، حكاية قال علامتنا ابن عيسى العوالي، عشيق ماء الدوالي³⁶، كنت في زمان شبابي انفه، وكان حرصي حلفه³⁷، هوت نفسي الى احدى النسوة، و تبعتها اعواما عدّة و قصوة، فلَمَّا وجدنا غفلة الافاعي، و عزم التلاقي، أتيت بها الى هذا المكان، الذي نحن فيه الآن، فبتنا متجاوبين متطالبين، و حال منجربين و منفردين، فمنعت نفسها منّي، و لم ترم استلقاها عني، وتلك الليلة كان أولها عندي كعسل الشهدة، وآخرها كان لي كعسل الزندة³⁸، فلَمَّا اصبح الصباح، افترقنا كافتراق السفاح، فعند هذا تغامزت الدارة عليه وارادوا تكذيبه، و استشعروا ضعف خبره وتخويره³⁹ قال لهم مالكم اتخذتم قولي خبثا، وفعلي عبثا، كلاً و الله لقد توقّفت في الغرايب اكثر مما ذكرت و إني لصادق في جميع ما قصصت، ألا إني طالما والله احافظ عن اباحة السرّ، واتجنب عن المخالطة التي يجب منها المفرّ، و تالله قد صدق الزعطوط عند مخاطبته لابنه، حيث قال في التنبيه، الخلطة تردي، والجرب يعدي، يا زعطوط يا ولدي، وسوف أبين لكم صدق قولي، و سأكشف لكم الغطا عن فعلي، و

³⁵ الهكول هو الاكول.

³⁶ ماء الدوالي هو عصير العنب و هو الخمر او المدام يحرم شربها للمسلمين.

³⁷ الحلفة هو وصف الحال بالخضرة لان الحلفة خضراء.

³⁸ الزندة هي القرية و عسل الزندة هو القطران و يقولوا فيه العرب عسل القرية.

³⁹ تخويره: التخوير هو الكلام الذي لا فائدة فيه و هو اللغوى.

اطالعكم على ما لا تعلمون، و لا أظن أنكم تعملون، و قام و قال قوموا و اهبطوا معي، وانظروا لما تجدون في روضتي و مرتعي، قال ابن العربي فهبطنا في اتباعه، الى ان وصلنا البحر وامواجه، فهوى بنا الى موضع منكزة الوصول، شايقة⁴⁰ السهول، فما لبثنا اذ وصلنا بيتا خفية المكان، حسينة المنزل و البنيان، فتقدم ابن عيسى و فتح باب المقام، و قال ادخلوها بسلام، فلما دخلنا البيت وجدنا على البساط امرأة، قد فرغت في قالب الجمال كأنها قمره، و بين يديها مايدة عليها مشموم و شمعة، وعدة من قروع الخمر ملتمة، وهي تلاعب العود، وتتلاها بالنشود، فلما رأينا هذا لعب الحسد عن قلوبنا، وتحققنا أنه في النشاط أحسن منّا، ثم كلمها العوالي، و قال لها يا بنيتي مالك لا تبالي، اعلمي ان السر اذا باح، فهو من علامة سخط الفتاح، قومي و اعزمي للطيران، واعلمي ان بقية الفريق تتهان، فقامت بأدب كالحمامة، ودرجت درج الامامة، فلم يك الا كلمح البصر او هو اقرب، اذ جمعت شغلها واعولت للمهب، واصحبت ابن عيسى، وفرقانا بلا تخليسي⁴¹، الى على الجبل اخذوا مركبا وانصرفوا، ولم ادر اين صكعوا وهدفوا، وتركونا كمن وجدوا كنزا وضيعوه، او ضربوا صيدا فمنعوه، فلم اكايد في الغربية، كهذه الكربة، وافترقنا وكلامنا ساحب ذيل الخجل، على ما رأينا في هذا المحل.

⁴⁰ شايقة: صعبة غير ساهلة.
⁴¹ بلا تخليسي أي بلا حجر و لا سترة.